الالتزام في الأغاني والأناشيد المزابية

أ/ فائزة بن عمور
جامعة غرداية
faizaghardaia@gmail.com

المقدمة:

تعتبر الأغاني والأناشيد سلوكا إنسانيا ومتنفسا ثقافيا للذات البشرية، فمنذ أن وعى الإنسان وجوده صاحبته طقوس الغناء والرقص، وإن كانت في البدايات الأولى قد عبرت عن ميول تعبدية من مثل ما كان في الحضارات القديمة، إلا أنها تغيرت مع مرور الزمن وأصبحت أكثر ارتباطا بالطرب، وتعبيرا عن الفرحة والحبور، وفي بعض الأحيان كانت الموسيقى انعكاسا للحزن وتذمرا من الواقع، وكاتب الكلمات في كل ذلك مرتبط بتوجه وإيديولوجيا معينة تتحكم فيما يسكبه من عبارات، والموسيقي ينطلق بدوره من طبيعة الكلمات فيوشحها بما يناسبها من لحن يتساوق ومقتضى أحوالها فينتج باتحادهما عرفا فنيا منسجما. ولم تشذ منطقة وادي مزاب عن ذلك إذ كانت الأناشيد والأغاني وسيلة طيّعة للتعبير عن التزام صاحب هذا النشاط الثقافي الإنساني، ومن خلال هذا المنطلق سنحاول التعرف على المواضيع والإيديولوجيات التي التُزم بها في الأغنية والأنشودة المزابية وقبل ذلك نقف عند جذور ومفهوم مصطلح الالتزام.

مفهوم الالتزام:

يعيش الإنسان في هذا العالم ضمن مجموعة كبرى تحدد على أنها إنسانية ويعد الأدب بكل فنونه من أهم الوسائل التي تعبر بها المجموعات في هذه الدائرة عن أفكارهم وتوجهاتهم، والالتزام في الأدب هو انعكاس لتلك التوجهات إذ يلزم الأديب نفسه بتبني فلسفة وفكر يدافع عنهما من خلال كتاباته وقد جاء في المفهوم اللغوي لكلمة الالتزام عند ابن منظور " لزم الشيء، يلزمه، لزما ولزوما، ولازمه ملازمة

ولزوما، والتزمه، وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لزمة يلزم الشيء فلا يفارقه. واللـــزوم الملازمة للشيء والدوام عليه، والالتزام الاعتناق.[1] وعلى هذا المعنى جاء تعريـــف الالتزام في الأدب اصطلاحا على أنه " مشاركات واعيـــة فـــي القضـــايا الإنســـانية الكبرى، السياسية والاجتماعية والفكرية، وليس الأمر مقتصرا على المشـــاركة فـــي هذه القضايا، وإنما يقوم الالتزام في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتخذه المفكـــر أو الأديب أو الفنان في هذه القضايا، وهذا الموقـــف يقتضـــي صـــراحة ووضـــوحا وإخلاصا و صدقا واستعدادا من المفكر الملتزم لأن يحـــافظ علـــى التزامـــه دائمـــا ويتحمل كامل التبعية التي تترتب على هذا الالتزام"[2] وبالتالي فالالتزام الأدبي هو أن يوقف الكاتب والأديب قلمه على القضايا الإنسانية والاجتماعية والسياسية المعاصـــرة له التي يؤمن بها ويتبناها ويظهر هذا الالتزام واضحا في مضـــامين كتاباتـــه الفنيـــة والفكرية، ولعل التاريخ يقف بنا عند الكتاب الماركسيين الـــذين دعـــوا جهـــرا إلـــى المذهب الماركسي وأُلزم والتزم العديد من الأدباء في الغرب الدفاع عن هذا الانتمـــاء فظهرت كتاباتهم مرتبطة ارتباطا وثيقا بهذا المذهب، على غرار "جان بول ســـارتر" الذي كان من الأوائل الذين نادوا بالالتزام في الأدب أو الأدب الملتزم.

وانتشرت فكرة الالتزام في الأدب العربي مرتبطة خاصة بالأدب الإسلامي فـــي الغالب؛ إذ يعتبر الأديب الذي يلتزم بما جاءت به الشريعة المحمدية من أخلاق سامية وفضائل أديبا ملتزما. ومن هذا المنطلق جاء التعبير في الأغنية المزابية يحمل بـــين طياته هذه الخصيصة والدعوة إلى تلك الشمائل والتحلي بها والتزم المنشـــد المزابـــي بقضايا دينه وأمته وتاريخه.

مظاهر الالتزام في الأغنية المزابية:

وتلتزم الأغاني في منطقة وادي مزاب بالعقيدة التي يعتقدها أهلهـــا منـــذ الفـــتح الإسلامي للبلاد المغاربية وفي ضوء ذلك جاءت أغلب النشاطات الثقافية والجماليـــة وعلى رأسها الأغاني والأهازيج معبرة عن هذه العقيدة المتجدرة تاريخا والممتدة في الحاضر، فعبرت هذه الطقوس عن الالتزام الإسلامي شكلا ومضمونا داعية في كـــل مرة إلى التمسك بما جاء به الإسلام والالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيـــه، كمـــا

التزمت بالقضايا الاجتماعية والإنسانية وحتى التاريخية منهـا اللصـيقة بـالمجتمع الغرداوي الأصيل وبذلك تعددت المواضيع التي حملتها هذه الأغاني نذكر من بينها.

العبودية لله تعالى:

التسليم لله وتعظيم شعائره والدعوة إلى التقيد بتعاليمه السامية، والحض على إتباع أركانه وترك نواهيه من أهم التيمات التي وسمت بها الأناشيد الدينيـة، نجـد ذلـك خاصة عند المنشد "عمر الداودي" الذي يستحضر في أناشيده هذه الملامح على غرار (تزاليت- الصلاة)،(رمضان)...

كلمات أغنية تزاليت:

أيـــوا تشـــبرت تمللالـــت أغـــار أتزويـــد لتمجيـــدا

أوتمـــا آدن تفرتنـــام زال تـــزالتنم تمـــدا[3]

ويقول في أغنية (رمضان):

أميـــدان يبهـــا رمضـــان أيبهـــا تالويـــت نـــولاوان

أيبهـــا ديـــور نلغفـــران أيبهـــا تالويـــت نـــولاوان

ربـــي يشـــوري ســـوارازان دتنميـــرين

أميـــدان يبهـــا رمضـــان ســـوعزام نلقـــرآن

أتقبـــل غفنـــغ أجليـــد أمقـــران إينيـــت أمـــين

أيبهـــان إيضـــانس ســـلقيام أوال نيـــوش يتـــوعزام

ســـولتش أيـــارا نـــآدم أربـــح تـــوتروين[4]

فرقة إنشادية غرداوية

والأغنية تعبر عن قيمة رمضان في الدين الإسلامي وأجره وأجر قارئ القرآن فيه وقيامه، ودعوات خالصة لأن يتقبل الله من المسلمين صالح أعمالهم في شهر الغفران.

كما أن الجانب الأخلاقي والدعوة إلى محاسنها حاضرة وبقوة في خطاب الأغنية المزابية، من بر الوالدين نمثل بأغنية شعبية متداولة بين أفراد المنطقة على اختلاف مستوياتهم وتوجهاتهم وفيها:

الوالدين أيوا عزيزان تدارت تيفاو تبها أسيسان

أتميضاد أتواوارازان دتنمرين دطعتنسان[5]

أناشيد ومدائح المولد النبوي الشريف:

وقد كانت مناسبة المولد النبوي الشريف من أكثر المناسبات التي تغنى بها المنشد المزابي وقد عُبقت أماسي هذه المناسبة الجليلة بجميل المدائح النبوية، داعية إلى اتباع سنة الرسول الأعظم والاهتداء بهديه والاقتداء به، وقد ألف ولحن الشيخ "صالح باجو" في ذلك قصيدته المشهورة " يلولد سيدنا محمد" والتي كانت أول نصّ شعري باللهجة المزابية أصبحت تقليدا درج على الإنشاد بها في كل مولد نبوي متجدد وفيها يقول المنشد:

يلولـــــد ســـــيدنا محمـــــد تَضْـــــوَا أدونيـــــت ســـــلنوار

أربـــــــي زال تســـــــلمد فواســـــي ســـــجدنتاس لشـــــجار

توليـــــد تزيـــــري نرســـــول تشعشـــــع أمـــــاس نيجنـــــوان

تفكرانـــــــغ آس يـــــــدلول يـــــالله أدنـــــاوي إزلـــــوان[6]

الشيخ صالح باجو خلال إنشاده في المولد النبوي الشريف

ومن الأناشيد التي رددت أيضا في هذه المناسبة:

يـــــالله يـــــالله أيـــــوا أنســـــبها بيضـــــد

يـــــاك ضـــــجيد آنيضـــــو غرنـــــاغ ديـــــس العيـــــد

إيضـــــــــو سيضـــــــــاد إمبارشـــــــــن

شـــــاش تفرحـــــد ديـــــس آيـــــول

إيجنـــــــــوان أتمـــــــــورا شاشـــــــــن

بابـــــا أنميـــــدن ديـــــس يلولـــــد

زالـــــــــت فســـــــــيدنا محمـــــــــد

أرابـــــــــي زال غفـــــــــس تســـــــــلمد[7]

أناشيد حفل "إيروان":

وحفل "إيروان" من الحفلات التي عرفتها مدينة (قرارة) بغرداية، ففي كل سنة تنظم هيئات وجمعيات المجتمع القراري، من معهد ومدرسة الحياة، وفرق أنغام الحياة، وتحت إشراف هيئة العزابة حفلًا بهيجا يحضره أهالي البلدة بمختلف الأعمار والفئات لتكريم المستظهرين لكتاب الله العزيز ويتخلّل الحفل مجموعة من الأناشيد الملتزمة المنوهة بفضل حافظ القرآن وحامله، ومن أشهر الأناشيد التي تردد في هذه المناسبة قولهم:

أسو دلجيموعة دلعيد

دلعيد نلمعروف نلقورآن

أيوا قداش أيتبهيد

سشيردان أحولي نيروان

منشت نيارن أتحفظد

.....

القرآن أولدتيس أبلاش

أنيلان بلاش مايحلاش

وفي الأبيات احتفال بحافظ القرآن والذي يكون غالبا في يوم الجمعة؛ إذ أن يوم الجمعة كما جاء في الأبيات عيده عيدان عيد للمسلمين وعيد احتفال بالمستظهرين لكتاب الله عز وجل، وتنشد هذه الأغنية مصاحبة للحظات تتويج المستظهر بما يسمى (أحولي نيروان) وهو عبارة عن لباس خاص لتمييز الحافظ عن العامة.

كما يذكر في هذا المحفل بضرورة المحافظة على القرآن حفظا وتلاوة وعملا بأحكامه كما في إنشادهم:

القرآن دوال أن ربي

يلزم أنطهلا ديس

سوعزامس دوفهام لمعانيس

دودجا سواييني يلان ديس

جانب من حفل إيروان

الحضارة المزابية والقصور:

وإذ تميزت منطقة غرداية بحضارة إسلامية قديمة وممتدة في حاضـــرها جعلـــت المنشد المزابي يلتزم بقضاياه التاريخية، ويتغنّى بها ويبدع الأشعار والألحان في هذا المنحى، فسجلوا بذلك مآثر القدماء وأساليب عيشهم وصبرهم وتفانيهم في تأسيس هذه الحضارة، بحفر الآبار لاستخراج المياه الصالحة للشرب الداعية للاســتقرار وبنـــاء القصور السبعة، وتشجير البساتين واستصلاح الواحات؛ " قصة مزاب" واحـــدة مـــن أعرق الأناشيد التي عبرت عن هذه الحضارة حيث يقول فيها المنشد:

تشرند أماس نتمورا تيمورا تمبارشين

ماني زوان نيت أنولنسن ربي ددين

دتمورا نتيهرت دجومنسن دجين ديس أينيدجين

أوالو شمرنت لوجنا أسيس أولين

معاسن تنميرين نوجليد أمقران

وسان ديضان أنتنين أدجورن

أدسيل فوادسيل ربي دونيسنسن

.....

أسني ينا ربي يا ممي ينمر أغلان

ستنمرين نربي أممي أولينـد إيغرمان[8]

كما تعتبر أغاني الأعراس في واجهة الخطابات الأدبية الإنشادية المحلية حيث تشهد خطاباتها الالتزام، وقد أحاط المزابي المناسبات العرسية باهتمام كبير، فألفت الكثير من القصائد لهذا الغرض وأصبحت تردد بنظام شبه دائم من الفرق الإنشادية المتخصصة في ذلك وكانت أناشيدها تدعو إلى حسن المعاشرة والطاعة والتحلّي بالأخلاق الإسلامية الحميدة في بناء الأسرة منها:

أيتبهيد أسو أيوا تليد أنيتران جار الوزران

أنشمر فوس ييوش أمقران أشيصيوض غلويني تمنيد

وقولهم:

صيودا أوصاودن صيودا أوصاودان

لمني أنامماس يوض لمني أنبابماس يوض

واحتفلت النساء بالنفساء ومولودها الجديد وأقامت لذلك أفراحا صاحبتها أغاني مهنئة مثل قولهن:

أيا لوجي يوش ربي ساغيلول

طارود ممين دامبارش داميمون

وتبع ذلك أناشيد للمولود في المهد ترددها الأمهات لتهدهد بها ابنها الصبي من جهة ومن جهة أخرى تعمل على ترسيخ العقيدة في لاوعي الطفل إيمانا منهن بأن الطفل سيشب على ما يلقن له من تعاليم دينية قويمة فغنين على رأس الطفل:

رارا رارا

رارا ممي رارا

سيوشنغ أنطس

سيوشنغ أنتشر

يوشنغ أغنيوش

الحنين إلى الحياة الأسرية الحميمية والطبيعة:

وقد حن الشاعر أيضا إلى حياة البساطة التي تجتمع فيها العائلة مع بعضها البعض ويجالس الأب أبناءه وتسرد لهم الجدة قصصا تراثية (تينفاس)، وكل هذا يحدث في جو شاعري يسوده الحنين والحب والجمال ويصور ذلك بأسلوب حكائي بديع حيث نجد الشاعر يبدأ فيها بذكر الطبيعة فيقول:

تفويت تنو جار إيوريرن أونون دفرس أولاون

سولس يولد في غرمان سوبرنوس يادن مدن

تيزداين تجموين كمشنت أطفنت إيفاسن

ماما دبابا جار طرو جرون أماس نتزفري

أتان تيسيت تبرشانت دولن ألوسان أنبكري

ماما تعزيزت أتالس جار تنفوسين أتزلون

بابا يضلا تيرا ماما تالم تيميرا

يليس أماس نوزطا تفكر يواس تيمورا[9]

واهتم كتاب هذه الأشعار ومنشدوها أيضا بتخليد رجال البلاد بذكر أعمالهم ومساهماتهم في الحفاظ على تقاليد المنطقة، وصناعة إنسان ابن بيئته الصحراوية المتواصل مع رمالها والمتغني بغاباتها المثمرة، فذكروا في أشعارهم هذه الغابات " تجميوين" ووثيق صلتهم بالنخلة "تازدايت" يقول الشاعر "صالح ترشين" على سبيل المثال:

أخزر أكرازني أول ينكل تجميني

غيرو يزوا لوجباد دسات أشور نيجوضاد

أخزرت يجور تزيري يسشوشيو ياين إتران

تطفـــــاس فـــــوس إوجـــــوري أتواناســـــــيت ســـــــــزلوان

ســـــــــلاس إتجـــــــــرارت ســـــــــــــــــتيلي أدورا

ســـــــــلاس أتنهـــــــــت دســـــــــــفي إتشـــــــــارا[10]

كما اهتم الشاعر المزابي أيضا بتوثيق الأحداث الاجتماعية الحاضـــرة وصـــور الآفات والانحرافات الاجتماعية، بل وحتى الكوارث الطبيعة، وذلك علـــى غـــرار الأناشيد التي وثقت لكارثة فيضان 2008 بهذه الولاية، والتي أدت إلى خسائر ماديـــة وبشرية جسيمة جعلت بعض شعراء المنطقة يبدعون قصائد في تصـــوير الخـــراب الذي حلّ بالمنطقة، وبأسلوب حكائي أيضا يبدأ بمقدمة يصور فيها استعدادات الأســـر ليلا للعيد من تجهيز للملابس الجديدة ولبس الحناء للأطفال الصغار والنســـاء حتـــى اللحظة التي تتحول فيها فرحتهم إلى مآسي إنسانية صباحا:

أنســـــــين قـــــــاع ميـــــــدن أســـــــــــلمني أســـــــــــني

دبورخسنســـــــــــن أقـــــــــنن إيلعيـــــــــــد الحنـــــــــــي

تجنيـــــــوت تقـــــــيم تشـــــــات أمـــــــــــاس أنيضـــــــــدي

وينـــــــان آيـــــــن غبشـــــــا أدزوا أمنـــــــــــــــــي[11]

وكانت الألحان مرتبطة في الغالب بأصوات المنشدين أو باســـتعمال الـــدف فـــي أغلب الأناشيد الملتزمة ولم يسرف المنشدون في منطقة غرداية في اســـتعمال الآلات الموسيقية إلا ما ندر وبذلك كان الرهان على إيصال المعنى والكلمة الراقية أكثر من التركيز على دور الموسيقى في ذلك.

ورغم وجود هذا الجانب الملتزم في الأغنية المزابية إلا أن ذلك لا يعـــدم وجـــود بعض الأغاني التي حادت عن هذا الجانب إلى الاختيـــار مـــن سفاســـف الكلمـــات والألحان مما لا يتلاءم وطبيعة المجتمع، ولكن ذلك لم يكن إلا بالنزر القليل مقارنـــة بالطابع العام.

ومن خلال جولتنا في هذا الموروث المحلي للأناشيد المزابية لاحظنا أنها تتكـــئ على دواوين أشهر الشعراء بالمنطقة على غرار صالح ترشين وغيره مـــن مبـــدعي الأدب المزابي، كما لاحظنا قلّة المهتمين والدارسين لهذا الأدب الأمـــازيغي المحلـــي وقلة المتخصصين فيه، وعلى ذلك فهو يعاني الإهمال على كافة المســـتويات جمعـــا ودراسة، وربما حتى إنتاجا، وذلك أدى بالمقابل إلى صـــعوبة التهمـــيش والتوثيـــق المنهجي الذي يعتمد فيه على السماع والحفظ أو فيديوهات على شبكة اليوتويب. كما نلاحظ أيضا الارتباط الوثيق بين هذا الأدب وتصويره للواقع والحياة الاجتماعية بكل تفاصيلها، ونثمن من جانب آخر حرص الشعراء على تنقية اللغة ومحاولـــة الكتابـــة بلغة مزابية أصيلة، رغم استعمال بعض الكلمات العربية أحيانـــا، إلا أننـــا نلاحـــظ بالمقابل توظيف بعض الكلمات المهجورة في الاستعمال اليومي مما يتطلب في بعض الأحيان العودة إلى القواميس المتحركة – بشرية– لشرحها وذلـــك لقلـــة القـــواميس الورقية في هذا المجال.

هوامش الدراسة:

---

[1]. ابن منظور لسان العرب، م12، دار صادر، دط، بيروت، دت، ص541.

[2]. أحمد أبو حاقة، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، ط1، 1979، ص13.

[3]. تراث شعبي.

[4]https://www.youtube.com/watch?v=c-KZRXmc5Bc .

[5]. تراث شعبي.

[6]https://www.youtube.com/watch?v=b5wLMVdJEfo&t=225s.

[7]https://www.youtube.com/watch?v=RxXWWUHTSMI.

[8]https://www.youtube.com/watch?v=mx98PfllfHc.

[9]https://www.youtube.com/watch?v=1K6GHaHHKt0.

[10]. صالح ترشين، أول أنو، دار الكتب، ص16.

[11]https://www.youtube.com/watch?v=tR3uYcDCqaU.